

سلسلة المحاربة الأخيار

كميل بن زياد





مضى رُبْعٌ مِنَ اللَّيْلِ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي غَفْوَةٍ وَسُبَاتٍ. وَقَعَ خُطُواتٍ وَئيدةٌ دَغْدَغَتْ سُكُونَ اللَّيْلِ. إِنَّهُمَا شَخْصَانِ يَسِيرَانِ فِي الطَّرِيقِ فِي أَحَدِ شَوَارِعِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ خَرَجَا مُنْذُ لَحْظَاتٍ مِنْ مَسْجِدِهَا الَّذِي مَا انْطَفَأَ سِرَاجُهُ بَعْدُ.

كَانَ الرَّجُلُ ذُو الْوَجْهِ الْمُضِيِّ هُوَ الْإِمَامَ عَلِيًّا بْنِ أَبِي طَالِبٍ (عليه السلام)، أَمَّا صَاحِبُهُ الَّذِي رَافَقَهُ فِي الْمَسِيرِ وَاهْتَدَى بِنُورِ وَجْهِهِ، فَهَتَوَ الْكَمِيلُ بْنُ زِيَادٍ بْنُ نُهَيْكٍ النَّخَعِيُّ الْكُوفِيُّ، الَّذِي كَانَ مِنْ أَوَائِلِ الثَّائِرِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَأَفْعَالَتِهِ الْمُخَالَفَةِ لِتَعَالِيمِ التُّبُوءِ وَشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ، بَعْدَ أَنْ امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالْهُدَى، فَأَعَزَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَأَكْرَمَهُ بِأَنْ جَعَلَهُ مِنْ خِيَارِ شِيعَةِ وَصِيِّ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم)، وَتَلَامِذَتِهِ وَمُحِبِّيهِ.

مَا أَبْهَى هَذِهِ اللَّيْلَةَ! كَانَتْ نَفْسُ كَمِيلٍ تُحَدِّثُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا فَضَّلَ صُحْبَتَهُ لِلْإِمَامِ (عليه السلام) الَّذِي كَانَ لَا يَدْعُ فُرْصَةً لِيَزْرَعَ فِي قَلْبِهِ مِشْكَاتَ ضِيَاءٍ إِلَّا وَاغْتَنَمَهَا!



وها هُوَ الْآنَ يُصْغِي مَعَهُ إِلَى صَوْتِ حَزِينٍ يَنْطَلِقُ مِنْ أَحَدِ
الْبُيُوتِ، لِعَابِدٍ مَا زَالَ يَقْظًا يَتَهَجَّدُ فِي ظُلْمَةِ ذَلِكَ اللَّيْلِ، وَيَتْلُو
آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ بِتَوَاضِعٍ وَخُشُوعٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا
وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾.

لَمْ يَقُلْ كُمَيْلٌ شَيْئًا، وَإِنْ أَسَرَّ فِي ذَاتِهِ إِعْجَابًا بِمَا سَمِعَهُ مِنَ
الرَّجُلِ صَاحِبِ الصَّوْتِ.

أَدْرَكَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ عليه السلام مَا يَجُولُ فِي أَعْمَتَاتِ نَفْسِ كُمَيْلٍ،
فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ: "يَا كُمَيْلُ! لَا تُعْجِبُكَ طَنْطَنَةُ الرَّجُلِ! إِنَّهُ
مِنْ أَهْلِ النَّارِ! وَسَأُنَبِّئُكَ فِيمَا بَعْدُ!".

عَقَدَتِ الدَّهْشَةُ لِسَانَ كُمَيْلٍ مِمَّا يَسْمَعُهُ مِنَ الْإِمَامِ عليه السلام! إِنَّهُ
يَعْلَمُ أَنَّهُ عليه السلام لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ وَالصَّدَقَ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ غَرِيبٌ
فِعْلًا أَنْ يَشْهَدَ الْإِمَامَ عليه السلام لِرَجُلٍ عَابِدٍ هَذِهِ الْعِبَادَةَ بِالنَّارِ!



وَانْتَظَرَ كُمَيْلُ الْأَيَّامِ الَّتِي وَعَدَهُ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام بِأَنْ يُنَبِّئَهُ فِيهَا
بِمَا يَحُلُّ لَهُ هَذَا اللَّغْزَ.

لَقَدْ سَمِعَ كُمَيْلٌ مِنْ قَبْلُ عَنْ لِسَانِ النَّبِيِّ صلی اللہ علیہ وسلم قَوْلَهُ مُخَاطِباً
الْمُسْلِمِينَ: " إِنَّ أَقْوَاماً يَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ يَمْرُقُونَ كَمَا يَمْرُقُ
السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ. "

فَهَلْ تَرَاهُ يَعْنِي بِهِمْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَأَمْثَالِهِمْ؟
وَرَأَى كُمَيْلٌ يَتَذَكَّرُ مَزِيداً مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي رُوِيََتْ لَهُ عَنْ
النَّبِيِّ صلی اللہ علیہ وسلم الَّذِي لَمْ يُحَالِفْهُ الْحَظُّ فِي أَنْ يَرَاهُ أَوْ يَعْرِفُهُ، إِذْ إِنَّهُ
وُلِدَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ عَرَفَهُ كَمَا لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ، بَعْدَ أَنْ أُتِيَ
لَهُ الزَّمَانُ أَنْ يَعْرِفَ وَصِيَّهُ وَيَكُونَ مِنْ شِيعَتِهِ وَمُوَالِيِهِ.

لَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلی اللہ علیہ وسلم فِي بَعْضِ مِنَ الْقُرَاءِ: " يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا
يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ. "

فَهَلْ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ بَيْنِ الْمَقْصُودِينَ بِذَلِكَ الْقَوْلِ
النَّبَوِيِّ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى.

حَسَنًا. إِنَّ الْأَيَّامَ لَمْ تُمِهِلْ حَيْرَةً كُمَيْلٍ كَثِيرًا!



وَهَا هُمُ الْخَوَارِجُ أَصْحَابُ الْجِبَاهِ السُّودَاءِ مِنْ كَثَرَةِ السُّجُودِ،
يَخْرُجُونَ عَلَى إِمَامِهِمْ، وَيَخَذُلُونَهُ، ثُمَّ يُحَارِبُونَهُ، فَيُخَاطِبُهُمْ
مَالِكُ الْأَشْتَرِ قَائِدُ جَيْشِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ صَفَيْنَ بِحُرْقَةِ
وَأَلَمَ قَائِلًا: "يَا أَصْحَابَ الْجِبَاهِ السُّودِ! كُنَّا نَظُنُّ صَلَاتَكُمْ
زَهَادَةً فِي الدُّنْيَا، وَشَوْقًا إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا أَرَى
فِرَارَكُمْ إِلَّا إِلَى الدُّنْيَا مِنَ الْمَوْتِ، أَلَا قُبْحًا يَا أَشْبَاهَ النَّيْبِ
الْجَلَالَةِ (النُّوقِ الْمُسِنَّةِ الْهَرَمَةِ)".

وَكَانَ الْوَفَاءُ بِوَعْدِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ النَّهْرَوَانِ، إِذْ دَعَا
الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصْحَابَهُ وَجُنُودَهُ إِلَى قِتَالِ أَوْلِيكَ الْمَارِقِينَ فَقَالَ
لَهُمْ: "وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ لَا يَقْتُلُونَ مِنْكُمْ عَشْرَةً،
وَلَا يَبْقَى مِنْهُمْ عَشْرَةٌ!". وَتَدَوَّرَ الْحَرْبُ الَّتِي شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
لِكُمُيلٍ فِيهَا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَنْصَارِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمِنْ الْمُقَاتِلِينَ
تَحْتَ لِيَوَائِهِ، فَلَا تَنْجَلِي الْمَعْرَكَةُ حَتَّى يَرَى أَصْحَابُ الْإِمَامِ
بَأَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْخَوَارِجِ عَشْرَةٌ!



وَيَنْطَلِقُ الْإِمَامُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ هَدَأَ الْغُبَارُ وَمَعَهُ صَاحِبُهُ كُمَيْلٌ
 بْنُ زِيَادٍ الَّذِي أَبْلَى فِي الْمَعْرَكَةِ بِلَاءً حَسَنًا، وَيَنْظُرَانِ مَعًا إِلَى
 جُثِّ الْقَتْلَى الْمُبْعَثَةِ عَلَى الرِّمَالِ قَبْلَ أَنْ تَجِفَّ الدِّمَاءُ.
 ثُمَّ يُشِيرُ الْإِمَامُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَأْسِ أَحَدِ الْقَتْلَى بِسَيْفِهِ، وَيَقُولُ
 لِكُمَيْلٍ: "يَا كُمَيْلُ! (أَمْنَ هُوَ قَانِتٌ أَنْاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا)!"
 فَفَهُمَ كُمَيْلٌ مَنْ يَكُونُ صَاحِبُ تِلْكَ الْجُثَّةِ، إِنَّهُ إِذَا ذَلِكَ
 الرَّجُلُ الَّذِي أُعْجِبَ بِصَوْتِهِ وَتِلَاوَتِهِ وَعِبَادَتِهِ!
 فَهُوَ كُمَيْلٌ عَلَى قَدَمَيَّ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْبَلُهُمَا مُسْتَغْفِرًا اللَّهَ
 تَعَالَى عَنْ تَسَرُّعِهِ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْبَشَرِ، وَمَا أُعْجِبَ
 أَحْوَالَهُمْ! وَكَمْ حَمَدَ اللَّهَ، بَعْدَ أَنْ تَذَكَّرَ فَضْلَهُ عَلَيْهِ، بِأَنْ
 هَدَاهُ، وَبَيَّنَّ لَهُ طَرِيقَ الْحَقِّ الَّذِي لَاشْبَهَةَ فِيهِ، وَجَعَلَهُ مُقَرَّبًا
 مِنْ وَصِيِّ النَّبِيِّ ﷺ وَتَلْمِيزًا لَهُ، يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، وَيُصْغِي إِلَى
 حَدِيثٍ لَا يَقُولُهُ إِلَّا هُوَ ﷺ لِأَحَدٍ سِوَاهُ.



بَلْ إِنَّهُ بِفَضْلِ صُحْبَتِهِ لِلإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَارَ مِنْ أَصْحَابِ إِمَامٍ
مَعصوم سَيَكُونُ وَصِيَّ أَبِيهِ مِنْ بَعْدِهِ. إِنَّهُ الإِمَامُ الْحَسَنُ الزَّكِيُّ
أَبُو مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ حَفِيدُ نَبِيِّ الأُمَّةِ، وَابْنُ بِنْتِهِ، وَابْنُ وَصِيِّهِ،
وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْقُرْبُ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، سَيُتِيحُ لِكُمَيْلٍ مَا
حُرِّمَ مِنْهُ الْكَثِيرُونَ، مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ يَقِينٍ وَمِنْ جِهَادٍ بَيْنَ يَدَيِ
الأَئِمَّةِ، لَذَا صَقَلَ سَيْفَهُ، وَأَعَدَّهُ فِي انْتِظَارِ أَيِّ إِشَارَةٍ يُشِيرُ بِهَا
الإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَتَنْفِذِ أَيِّ أَمْرٍ يَأْمُرُهُ بِهِ.

لَمْ يَكُنِ الْجِهَادُ بِالسَّيْفِ هُوَ الْعَمَلُ الْوَحِيدَ الَّذِي أَعَدَّ أَمِيرُ
المُؤْمِنِينَ كُمَيْلاً لَهُ، فَالِإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ أَنَّ لِأَصْحَابِهِ دَوْرًا لَا
يَقِلُّ أَهْمِيَّةً عَنْ دَوْرِهِمْ فِي الْجِهَادِ.

إِنَّهُ جِهَادٌ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ، هُوَ تَعْلِيمُ النَّاسِ وَنَقْلُ الْعِلْمِ النَّبَوِيِّ
عَنِ الإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ، لِذَا كَثُرَ مَا كَانَ الإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَهْمِسُ
فِي أُذُنِ كُمَيْلٍ بِعِلْمٍ مِنْ عُلُومِ النُّبُوَّةِ، أَوْ حِكْمَةٍ مِنْ حِكْمِهَا.
وَهَا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَأْخُذُ بِيَدِ كُمَيْلٍ ذَاتِ يَوْمٍ، وَيَخْرُجُ
بِهِ إِلَى الْفَلَاةِ الْوَاسِعَةِ



بَيْنَمَا تَتَقَلَّبُ الْفَرَحَةُ فِي أَعْمَاقِ كَمِيلِ الَّذِي مَا أُتِيحَ لَهُ
 مَرَّةً أَنْ يَكُونَ بِرِفْقَةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَحَدَهُ، إِلَّا وَاخْتَصَّهُ بِعِلْمِ
 مَنَ الْعُلُومِ الْمُقَدَّسَةِ، أَوْ بَاخَ لَهُ بِسِرِّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْمُنْجِيَةِ
 مِنَ النَّارِ. لَمْ يَكُنْ مُهِمًّا عِنْدَ كَمِيلٍ أَنْ يَعْرِفَ وَجْهَةَ
 سَيْرِهِ بِصُحْبَةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. الْمِهُمُّ أَنَّهُ بِصُحْبَتِهِ وَكَفَى.
 فَجَاءَتْ تَوَجَّهَتْ خُطَا الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحْوَ مَكَانٍ يَعْرِفُهُ كَمِيلٌ
 جَيِّدًا. وَلَمْ لَا. رُبَّمَا قَالَهَا كَمِيلٌ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ يَرَى
 قُبُورَ الْمَوْتَى تَتَرَاصَفُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ!

هَذَا هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي أَرَادَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَخْرُجَ بِهِ إِلَيْهِ
 إِذَا، فَرُبَّمَا كَانَ مَنْ فِي الْأَجْدَاثِ أَفْضَلَ عَمَلًا مِمَّنْ هُمْ
 فَوْقَ التُّرَابِ! لَمْ يَظُلْ تَأْمُلُ كَمِيلٌ طَوِيلًا. إِذْ هَبَّتْ نَسَمَةٌ
 عَلَيْهِ مَلَأَتْ صَدْرَ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْهَوَاءِ النَّقِيِّ، فَتَنَفَّسَ
 الصُّعْدَاءُ، مُعَبِّرًا عَنْ رَاحَتِهِ فِي الْبُوحِ وَالْكَلامِ، ثُمَّ قَالَ: "يَا كَمِيلُ! إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبُ أَوْعِيَّةٌ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، فَاحْفَظْ
 عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ."



النَّاسُ ثَلَاثَةٌ، فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ النِّجَاةِ، وَهَمَّجٌ
رُعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ
الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ.
يَا كَمِيلُ! الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ. وَالْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ
الْمَالَ. الْمَالُ تُنْقِصُهُ النِّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ
الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.
يَا كَمِيلُ! مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ. بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ
فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الْأَحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ
مَحْكُومٌ عَلَيْهِ.
يَا كَمِيلُ، هَلَكَ خُزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا
بَقِيَ الدَّهْرُ. أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَا
إِنْ هَهُنَا لِعِلْمًا جَمًّا (وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ) لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً!
بَلَى أَصَبْتُ لِقْنًا غَيْرَ مَمُونٍ عَلَيْهِ، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا،
وَمُسْتَظْهِرًا بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، أَوْ
مُنْقَادًا لِحَمَلَةِ الْحَقِّ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ، يَنْقَدِحُ الشُّكُّ فِي
قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ.



ألا لا ذا ولا ذاك، أو مَنهُمَآ بِاللَّذَّةِ سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ،
أو مُغْرَمَآ بِالْجَمْعِ وَالادِّخَارِ لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ.
أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهَآ بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ
بِمَوْتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بلى! لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ. إِمَّا ظَاهِرًا
مَشْهُورًا، أَوْ خَائِفًا مَغْمُورًا، لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ.
وَكَمْ ذَا؟ وَأَيْنَ أَوْلَئِكَ؟

أَوْلَئِكَ وَاللَّهُ الْأَقْلَوْنَ عَدَدًا، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا.
يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ، حَتَّى يُوَدِّعُوهَا نُظْرَاءَهُمْ،
وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ. هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى
حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلَانُوا مَا
اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرَفُونَ، وَأَنَسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ،
وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى.
أَوْلَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالِدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ. آهِ آهِ
شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْتِهِمْ.. إِنصَرِفْ إِذَا شِئْتَ!".



هَكَذَا اخْتَارَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُمَيْلاً دُونَ بَقِيَّةِ صَحْبِهِ كَيْ
يُفْضِيَ إِلَيْهِ بِهَذَا الْعِلْمِ، فَالْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِ كُمَيْلٍ
مِنْ شَوْقٍ إِلَى حِفْظِ الْعِبَرِ وَالْدُّرُوسِ، وَمَالَدَيْهِ مِنْ صَبْرِ عَلَى
تَعْلِيمِهَا لِلْآخَرِينَ مِنَ النَّاسِ.

وَقَدْ خَبِرَهُ مَرَّةً فِي مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ، يَوْمَ جَلَسَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَمَعَهُ كُمَيْلٌ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ
يَتَكَلَّمُ يُنْصِتُ كُلُّ الْحَاضِرِينَ إِجْلَالاً وَهَيْبَةً، وَاحْتِرَاماً.
إِضَافَةً إِلَى رَغْبَةِ الْحَاضِرِينَ بَارْتِشَافِ الْعِلْمِ مِنْ مَنَاهِلِهِ
وَيَنَابِيعِهِ.

وَكَانَ النَّاسُ كَعَادَتِهِمْ يَسْأَلُونَ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْقَضَايَا
الَّتِي تَشْغَلُ بِهِمُ، وَيَحْتَاجُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا.
فَقَالَ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ سَائِلاً أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: " مَا مَعْنَى
قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) . "



فَقَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام: "هِيَ لَيْلَةُ النُّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، وَالَّذِي
نَفْسُ عَلِيٍّ بِيَدِهِ، إِنَّهُ مَا مِنْ عَبْدٍ، إِلَّا وَجَمِيعُ مَا يَجْرِي عَلَيْهِ
مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مَقْسُومٌ لَهُ فِي لَيْلَةِ النُّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، إِلَى
آخِرِ السَّنَةِ فِي مِثْلِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمُقْبِلَةِ. وَمَا مِنْ عَبْدٍ يُحْيِيهَا،
وَيَدْعُو بِدُعَاءِ الْخَضِرِ عليه السلام إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ."

أَكْمَلَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام حَدِيثَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، بَيْنَمَا رَاحَ كُمَيْلٌ
يَتَأَمَّلُ مَا قَالَهُ، وَيُبْحِرُ فِي مَعَانِيهِ. وَفِي اللَّيْلِ، وَبَيْنَمَا الْإِمَامُ
عَلِيُّ عليه السلام فِي بَيْتِهِ، إِذْ بَطَّرِقَ عَلَى الْبَابِ فِي وَقْتٍ لَيْسَ مِنْ
عَادَةِ النَّاسِ أَنْ يَطْرُقُوا فِيهِ بِابْنِهِ.

فَتَحَّ الْإِمَامُ عَلِيُّ عليه السلام الْبَابَ، وَإِذْ بِكُمَيْلٍ بْنِ زِيَادٍ! قَالَ عليه السلام:
مَا جَاءَ بِكَ يَا كُمَيْلُ؟

قَالَ كُمَيْلٌ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، دُعَاءُ الْخَضِرِ عليه السلام!".
فَقَالَ الْإِمَامُ عليه السلام: "إِجْلِسْ يَا كُمَيْلُ. إِذَا حَفِظْتَ هَذَا الدُّعَاءَ،
فَادْعُ بِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جُمُعَةٍ، أَوْ فِي الشَّهْرِ مَرَّةً، أَوْ فِي السَّنَةِ
مَرَّةً، أَوْ فِي عُمْرِكَ مَرَّةً، تُكْفَ، وَتُنْصَرَّ، وَتُرْزَقَ، وَلَنْ
تَعْدِمَ الْمَغْفِرَةَ."



لَمْ يَكْتَفِ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ أُعْطِيَ كُمَيْلاً مَا سَأَلَهُ، بَلْ إِنَّهُ أَمَرَهُ بِأَنْ يَكْتُبَ الدُّعَاءَ لِيَكُونَ رَفِيقاً مُؤْنِساً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ، كُلَّمَا أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الْحَيَاةُ لِيَسْأَلُوا اللَّهَ، أَوْ تَيَسَّرَتْ لَهُمْ، لِيَشْكُرُوهُ.

لَقَدْ رَأَى الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كُمَيْلٍ مِنَ الصِّفَاتِ مَا جَعَلَهُ يُولِيهِ ثِقَةً عَظِيمَةً. إِنَّ لَشَجَاعَتِهِ وَزُهْدِهِ وَإِيمَانِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نِعَمَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ.

وَلِذَا اعْتَمَدَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ فِي وِلَايَةِ بُلْدَةِ هَيْتَ، وَهِيَ مِنْ بِلْدَاتِ الْعِرَاقِ، مِنْ نَوَاحِي بَغْدَادَ، وَسَلَّمَهُ أَمْرَهَا، فَهَلْ نَجَحَ كُمَيْلٌ فِي إِدَارَةِ شُؤُونِهَا مِثْلَمَا نَجَحَ فِي أُمُورِ الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ؟ كَانَ مُعَاوِيَةُ يُتَرَبَّصُّ بِالْمُسْلِمِينَ فِي انْتِظَارِ أَيِّ حَالَةٍ ضَعْفٍ يُمَكِّنُ لَهُ أَنْ يَنْفِذَ مِنْهَا إِلَى تَنْفِيزِ أَهْدَافِهِ وَمُخْطَطَاتِهِ



وَكَانَ عَلَى عِلْمٍ بِأَنَّ كُمْيلاً بْنَ زِيَادٍ صَارَ وَالِيّاً عَلَى هَيْتَ،
وَكَانَتْ الْجَزِيرَةُ عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْ هَيْتَ، حَيْثُ عَيْنَ الْإِمَامِ
عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَبِيحاً بْنَ عَامِرٍ وَالِيّاً.
فَرَأَى مُعَاوِيَةَ أَنَّ يَنْقُضَ عَلَى هَيْتَ مِنْ خِلَالِ مُهَاجَمَتِهِ
الْجَزِيرَةَ أَوَّلًا، فَسَيَّرَ إِلَيْهَا جَيْشاً بِقِيَادَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
قَبَاطِ بْنِ أَشِيْمٍ. فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ كَانَ شَبِيْبٌ فِي مَدِيْنَةِ
نَصِيْبِيْنَ بَيْنَ الْمَوْصِلِ وَالشَّامِ. وَلَمَّا عَلِمَ بِقُدُومِ جَيْشِ
مُعَاوِيَةَ، أَرْسَلَ إِلَى كُمْيَلِ بْنِ زِيَادٍ فِي هَيْتَ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ.
وَعَلَى الْفَوْرِ أَرْسَلَ كُمْيَلٌ إِلَيْهِ سِتْمَائَةَ فَارِسَ، انْضَمُّوا إِلَى
جَيْشِهِ، وَقَاتَلُوا جَيْشَ مُعَاوِيَةَ حَتَّى هَزَمُوهُ، وَقَتَلَ كُمْيَلٌ
فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الْكَثِيرَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، كَمَا قُتِلَ مِنْ
أَصْحَابِهِ رَجُلَانِ. وَحِينَ عَلِمَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ الْفَتْحِ
سُرَّ وَجَزَى كُمْيلاً خَيْرًا، بَعْدَ أَنْ لَامَهُ عَلَى نَجَاحِ مُعَاوِيَةَ
فِيمَا سَبَقَ فِي الْإِغَارَةِ عَلَى وَلايَتِهِ، رِغْمَ أَنَّهُ حَاوَلَ أَنْ
يُعَوِّضَ ضَعْفَهُ فِي رَدِّ غَارَةِ مُعَاوِيَةَ بِأَنْ أَغَارَ عَلَى أَطْرَافِ
مَنَاطِقِ سَيِّطَرَةِ مُعَاوِيَةَ.



وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ، وَكُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ يَعْيشُ مُحِبًّا لآلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مُلتَزِمًا بِنَهْجِهِمْ، وَمُعَلِّمًا لِقِيَمِ الثُّبُوءِ وَتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ.

فِي زَمَنٍ شَاعَ فِيهِ الضَّلَالُ، وَتَاهَتْ السَّفِينَةُ بِرُكَابِهَا. وَلَكِنَّ الظُّرُوفَ تَغَيَّرَتْ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُخْلِصِينَ إِلَّا ثَلَاثَةٌ، بَيْنَمَا تَوَلَّى الْحُكْمَ أَعْدَاءُ الدِّينِ وَأَعْدَاءُ النَّبِيِّ ﷺ، أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمَعَنُوا فِي آلِ بَيْتِ نَبِيِّهِمْ قِتْلًا وَتَعْذِيبًا.

وَيَتَوَلَّى الْحَجَّاجُ بِسَيْفِهِ وَبَطْشِهِ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَبْدَأُ بِمُلَاحَقَةِ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ، وَيَطْلُبُ كُمَيْلًا بْنَ زِيَادٍ، فَمَا كَانَ مِنْ كُمَيْلٍ إِلَّا أَنْ تَوَارَى خَشْيَةً مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنَالَهُ مِنْ أَذَى عَلَى يَدِ الْحَجَّاجِ وَأَعْوَانِهِ. فَبَادَرَ الْحَجَّاجُ إِلَى قَطْعِ الْعَطَاءِ عَنْ قَوْمِ كُمَيْلٍ، كَيْ يَضْغَطَ عَلَيْهِ وَيُرْغِمَهُ عَلَى تَسْلِيمِ نَفْسِهِ.



وَفَكَّرَ كُمَيْلٌ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ: "أَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ نَفَذَ عُمْرِي،
لَا يَنْبَغِي أَنْ أَحْرِمَ قَوْمِي عَطِيَّاتِهِمْ". ثُمَّ خَرَجَ بِقَرَارٍ أَنْهَى
حَيَاتَهُ شَهِيدًا!

لَقَدْ ذَهَبَ عَلَى قَدَمَيْهِ إِلَى الْحَجَّاجِ، وَمَا إِنْ نَظَرَ إِلَيْهِ حَتَّى
قَالَ: "لَقَدْ كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ أَجِدَ عَلَيْكَ سَبِيلًا".

فَقَالَ لَهُ كُمَيْلٌ بِصَوْتٍ هَادئٍ وَرَاصٍ: "لَا تَصْرِفْ عَلَيَّ
أَنْبَاءَكَ، وَلَا تَهْدَمْ عَلَيَّ، فَوَ اللَّهُ مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي إِلَّا وَاسْتَلِ
الْغُبَارَ، فاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، فَإِنَّ الْمَوْعِدَ اللَّهُ، وَبَعْدَ الْقَتْلِ
الْحِسَابُ. وَلَقَدْ خَبَّرَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
أَنَّكَ قَاتِلِي".

فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ بِأَنْ يَضْرِبُوا عُنْقَهُ، وَاسْتُشْهِدَ كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ
بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، قَدْ اهْتَدَتْ إِلَى الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بَعْدَ أَنْ مِنْ
اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بِصُحْبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

